آثار التلفاز الواقعي على الأصالة والالتزام

الدكتور عبد الستار قاسم

تظهر على الناس بين الحين والآخر موجات جديدة من السلع أو الخدمات أو العروض أو الأزياء والتقليعات على مختلف صنوفها وأنواعها. هذا ينطبق على البرامج التلفزيونية التي تتنوع حسب معايير متعددة منها التوجيهية ومنها الظرفية ومنها الإبداعية، الخ. ظهر مثلا على التلفاز منذ سنوات قليلة برامج المسابقات مثل **من سيربح المليون**، وبرامج اليانصيب القائم على الاتصال الهاتفي. ومن ثم ظهرت موجات من الأغاني الراقصة التوائيا بطريقة إغرائية والتي تخاطب الجسد دون أي شيء آخر، وتلاها برامج التلفاز الواقعي الذي يتابع تفاصيل نشاطات شخص أو مجموعة، أو يحاول إبراز طاقة إنسانية معينة.

هذا التوالي في موجات البرامج المستجدة ليست إبداعا عربيا وإنما إبداع غربي، وتهدف أساسا إلى تلبية متطلبات غربية. **من سيربح المليو**ن، مثلا، عبارة عن نقل عربي حرفي عن أوروبا وكذلك برنامج **سوبر ستار** و **ستار أكاديمي**. المعنى أن هذه البرامج ليست موجهة أساسا للعرب، ولا هي مخططة لإلهاء العرب أو تحويل أنظارهم عن قضايا حيوية. لكن من الممكن توظيفها لتلبية أغراض معينة على الساحتين العربية والإسلامية. وإن شئنا التخصيص بالمزيد، فإنه يمكن استخدامها لتحويل الأنظار الفلسطينية والعربية عن القضية الفلسطينية.

فكرة التلفاز الواقعي

تقوم فكرة التلفاز الواقعي على تقديم برامج تصور واقع حياة الناس كما هي وكما يتصرفون على سجيتهم وبعفويتهم الاعتيادية. والفكرة إبداعية من حيث أنها تحاول الخروج من أنماط البث التلفازي التقليدي لتقدم الشيء الجديد الذي يستقطب اهتمام الناس. ومن الممكن أن يصبح هذا النمط مملا بعد عدة سنوات كما هو شأن العديد من الموجات البرامجية أو الأغاني التي لا تعمر كثيرا. يلاحظ المتتبع للبرامج التلفازية أن التغيير في أنماطها قد أصبح سريعا في العشرين سنة السالفة، وأن الناس سرعان ما يأنفون أو يبتعدون عن برامج تعلقوا بها بداية وملّوها بعد فترة

وجيزة. وربما هذه مشكلة بحاجة إلى أبحاث على المستوى العالمي للتعرف على الأسباب والإيجابيات والسلبيات وخلفياتها النفسية والاجتماعية والاقتصادية وآثارها المستقبلية.

من الممكن تلخيص أسباب ظهور الفكرة بما يلي:

أولا: مواجهة الملل الذي يحيط بالناس من البرامج التلفازية؛

ثانيا: تلبية رغبة الشخص في التعرف على الحياة الخاصة للآخرين أو التلصص عليهم. ربما تعب الغرب من الانكفاء الذاتي وعدم التدخل في شؤون الآخرين، فجاءت الفكرة لتسد جزءا من الفراغ الذي قد يؤشر على رغبة إنسانية. وربما في هذا التلصص ما يؤدي إلى تفاعل المشاهد مع نجوم البرنامج مما يفسح المجال أمام مشاركات وجدانية عن بعد. من المحتمل جدا أن هذا يحل جزءا من مشكلة كبيرة تعاني منها المجتمعات وهي عملية التفاعل الإنساني البريء مع الآخرين من منطلق غير مصلحي وغير مكلف؛

ثالثا: ربما ملّ المشاهدون التمثيل، فجاءت الفكرة لتضع التلفزيونيين على الشاشة كما يتصرفون في الحياة الاعتيادية بدون تمثيل أو تزوير في الشخصيات والسلوك. أظن أن الناس يجنحون نحو النظر إلى الحقيقي ويرغبون باستيعابه، ذلك بعكس التصنع الذي لا يتطلب التركيز ولا التخزين في الذاكرة. العدد الأكبر من الناس اعتاد على مشاهدة برامج وأفلام ولديه وعي مسبق بأنه يشاهد كذبا وتزويرا. التلفاز الواقعي يقدم شيئا مختلفا بحيث يظن المشاهد أنه يرى شيئا حقيقيا؛

رابعا: يكمن العنصر الأهم في أن الرأسمالية الليبيرالية الجديدة وجدت في الفكرة منفذا من شقين:

أ- يتمثل الشق الأول في الأرباح التي تجنيها الشركات من خلال الإعلانات؛

ب- ويتمثل الثاني في تسهيل نشر الفكرة الغربية ضمن منطق العولمة الذي تحاول الولايات المتحدة بالتحديد تجييره ذاتيا وفق مصالحها هي. حقيقة فكرة التلفاز الواقعي نجاحا كبيرا فوجدت فيها الدول الغربية ما يخدم مصالحها على مستوى العولمة التي تحمل الأبعاد الذاتية.

هل التلفاز الواقعي واقعي؟

قبل الخوض بمحور النقاش الأساسي لهذه الورقة، أود الإشارة إلى أن التلفاز الواقعي حقيقة ليس واقعيا وذلك لأنه معد مسبقا ويعرف ممثلو البرنامج أنهم سيظهرون على الشاشة وسيشاهدهم ملايين الناس. يعرف اللاعبون أنهم لاعبون وأنهم أبطال البرنامج، وهم يتصرفون غالبا وفق

تطلعاتهم بحيث يحصلون على أفضل النتائج الممكنة. فمثلا **سوبر ستار** ليس عفويا إطلاقا لأن الناس الذين يظهرون على التلفاز يتعرضون أولا لعملية انتقاء ثم لعملية تهذيب في الشكل واللباس والسلوك ومن ثم إلى تسابق على كسب إعجاب جمهور المشاهدين. هذا ينطبق على برامج أخرى مثل **الهوى سوى** و**ستار أكاديمي**.

البث الحي المباشر هو أقرب على الواقعية من التلفاز الواقعي. آلة التصوير التي تصور سلوك الناس ليلة العيد وهم يشترون الملابس لأطفالهم، أو تلك التي تلتقط صورة لشجار بين بعض الناس أو لتقديم الطعام تعطي صورة واقعية وعفوية إلى حد كبير بخاصة عندما لا ينتبه الشخص بأنه يجري تصويره. الواقعية التصويرية تتعلق بتصوير الناس كما هم، ولا تتعمد القيام بنشاطات مسبقة نحو الإعداد للتصوير.

أبعاد التلفاز الواقعي على المستوى العربي

العرب ناقلون، وهم مقلدون بالدرجة الأساسية. وقد وصف أفلاطون المقلدين قديما بأنهم أناس وهميون يعيشون بشخصيات غيرهم. إنهم لا يستطيعون أن يكونوا أنفسهم، وهم أعجز من أن يبدعوا لأنفسهم فيهربون من أنفسهم ليتقمصوا الآخرين. وربما هذا ما يفسر سرعة المحطات الفضائية العربية في نقل المستجد من البرامج وأساليب العرض. يأخذ العرب إبداعات الغرب التي غالبا ما تكون تلبية لحاجة غربية ويقدموها للمشاهد العربي وكأنها باتت إبداعا عربيا خاصا. هذا الأسلوب وهذا الهروب سببا الكثير من المشاكل على الساحة العربية وصنعا هموما كثيرة لا تتوفر قدرات علمية نفسية وتربوية للتغلب عليها. وحتى لا توجد نوايا على مستوى السياسة العليا لدول المنطقة لمعالجة مثل هذه الأمور.

لكن من المهم أن نلاحظ أن هذه البرامج، على الرغم من أنها إبداع غربي، تلاقي رواجا شعبيا على المستويين العربي والفلسطيني. تجلس ملايين الناس أمام الشاشة لتشاهد **ستار أكاديمي** وقلما يبخلون في الاتصال هاتفيا للتصويت لهذا أو ذاك. إنني لا أملك إحصائيات حول الموضوع، لكنه ينتابني شعور بأن المستوى الشعبي قد دفع من أمواله في الاتصالات الهاتفية في هذه البرنامج أكثر مما قدم دعما للشعب الفلسطيني خلال انتفاضته الجارية حاليا، بخاصة أنه يعي أن أجهزة المخابرات لا تلاحق مثل هذه النفقات بينما تلاحق أموال دعم الشعب الفلسطيني.

أسباب نجاح برامج التلفاز الواقعي

واضح من الإحصائيات التي تم نشرها ومن تعليقات وسائل الإعلام المختلفة أن برامج التلفاز الواقعي وأخص بالذكر **الهوى سوى وسوبر ستار وستار أكاديمي** قد لاقت نجاحا كبيرا على الساحة العربية وفي فلسطين المنكوبة. ربما هناك من يحاول إغماض عينيه عن الحقيقة، لكن من الأفضل أن نرى الأمور على ما هي عليه إذا أردنا أن نكون قادرين على التخطيط السليم واتخاذ القرار السليم. وعليه فإنني أجتهد هنا الأسباب التالية للنجاح:

أولا: تخفف البرامج المطروحة من آثار الصدمة الاجتماعية التي يعيشها كل من الشاب والشابة العربية. لم يعد شباب العرب ذكورا وإناثا أبناء مجتمع تقليدي محافظ منغلق على العالم، بل هم أبناء مجتمع تقليدي منفتح على العالم من خلال التلفاز. يرى هؤلاء الشباب أين وصل شباب العالم ذكورا وإناثا من التفاعل المتبادل والنشاطات المشتركة التي يقومون بها، وفي ذات الوقت يجدون أنفسهم ضمن منطق العيب والحرام الذي يوجه سلوكهم. إنهم يتطلعون نحو الانطلاق، لكن حبال التقليد تجرهم، ولا يجدون في ذات الوقت البديل العربي الذي يحافظ على الأصالة وينطلق نحو الحداثة. هذا الشاب أو هذه الشابة العربية ممزقة أو مصدومة، فيجد كلاهما فرصة في التعبير النظري من خلال هذه البرامج التلفازية الموصوفة بالواقعية.

ثانيا: مل العربي البرامج التقليدية سواء كانت سياسية أو تربوية أو دينية. يسمع الشباب العربي كذب السياسي العربي، ويرون قلة حيلة الرافض للواقع العربي القائم، ويستمعون إلى الوعظ الديني المتكرر الذي لا يقدم جديدا وعلى الآباء الذين يقدمون النصائح ولا يعملون بها. ولهذا تتحول روبي أو نانسي عجرم إلى بطلة في الواقعية في مواجهة الزيف الاجتماعي والسياسي الذي يحاول الجيل الأكبر أن يقدمه بصورة نصائح وإرشادات. لقد فشل الجيل الأكبر في أن يكون صادقا ووفيا من الناحية العملية لأقواله وقاد الأمة من هزيمة إلى هزيمة، فلماذا البقاء ضمن دوائر الخيبة والتزييف؟

ثالثا: العربي مأزوم نفسيا لأنه فاقد لاحترام الذات واحترام الآخرين. إنه مهزوم ومقموع ومراقب وغير منتج ولا يفكر حتى بحرية تقوده إلى الإبداع. هذه حالة تقود بالتأكيد نحو الانشغال بما هو تافه أو بما يبعد المرء عن مواجهة الحقيقة. برامج التلفاز الواقعي تلبي مثل هذا المتطلب.

رابعا: تنسجم برامج التلفاز الواقعي مع عادة عربية متفشية وهي التدخل في شؤون الآخرين والعمل على معرفة ثنايا حياتهم الخاصة. لا يجد العربي حرجا كبيرا في مراقبة الحياة الخاصة

للآخرين على شاشة التلفاز لأنه أصلا لا يجد حرجا كبيرا في متابعة الأخبار الخاصة للناس في واقعه اليومي.

خامسا: تتيح برامج التلفاز الواقعي فرصة المشاركة أمام العربي مما يساهم في سد ثغرة كبيرة في حياة العربي. العربي إجمالا غير مشارك في التخطيط وصنع القرار وهو محروم من ذلك بسبب الاستبداد الاجتماعي والسياسي. تتيح البرامج هذه فرصة الاختيار عبر التصويت الهاتفي أو الإليكتروني مما يشعر المرء بأن لرأيه قيمة وأن رأيه مسموع ومأخوذ بعين الاعتبار.

الخسائر والأرباح

على الرغم من أن برامج التلفاز الواقعي قد لاقت رواجا ونجاحا على الساحة العربية، إلا أنها تنطوي حقيقة على مضار كثيرة تقابلها بعض الحسنات. فيما يلي بعض النقاط:

المضار:

أولا: تعزز هذه البرامج الصراع الداخلي الذي يعاني منه الشباب العربي ذكورا وإناثا. شباب العرب يتابعون بشغف لكنهم لا يستطيعون عيش هذه الأجواء التي يحبونها. النتيجة هي زيادة حدة الاغتراب الذاتي وارتفاع مشاعر التيه والضياع. ببساطة يسأل الشاب والشابة نفسه/ا بالسر والعلن عن سبب صعوبة الانطلاق فينقم على ذاته ومجتمعه بالمزيد.

ثانيا: ترسم هذه البرامج صورا مشوهة عن المجتمع العربي من حيث أن القيم الممارسة تلفازيا مختلفة حديا وربما تناقضيا مع قيم المجتمع العربي. أي أن التلفاز الواقعي لا يعكس واقع الأمة العربية أو أي من شعوبها وإنما يعكس حقيقة قيم مجتمعات غربية. يؤدي هذا إلى انفصام قيمي يعزز الاغتراب ويعزز الإعجاب بالغير على حساب الذات. يتعلم الشاب العربي في مجتمعه قيم الاحتشام ورفض الإباحية، وكذلك قيم الترابط الأسري واحترام الجسد الإنساني. لكن هذا الشاب يرى قيما أخرى مناقضة على برامج التلفاز الواقعي. أين هو في المجتمع العربي أن تنام فتاة بين شباب أو في غرفة واحدة مع الشباب؟ حتى أن هذا السلوك لا يحظى بالتشجيع في المجتمعات الغربية التي سارت في طريق الإباحية.

هنا يحصل تعقيد قيمي وتناقض مرعب يؤدي إلى الانفصام. ببساطة، يسأل الشابة أو الشابة العربية عن السلوك الصحيح. قيم متناقضة تتجاذبه ويضطر أن يجاريها حسب الموقف الذي يتواجد فيه. إنه لا يستطيع أن يكون نفسه، ويجد ذاته مدفوعا ولو عن غير وعي إلى تزوير نفسه.

ثالثا: تغيب عن هذه البرامج قيم الالتزام بالقضايا العامة والهموم الوطنية والقومية والدينية، وتحل محلها قيم الترفيه والمصالح الخاصة. هذه برامج قد تكون صالحة لهولندا أو الدنمارك التي لا تعاني من هموم تثقل كاهل الأمة، لكنها لا تصلح لأمة تعاني من الاستبداد وفساد الحكام والاحتلال وسطوة الأجانب ونهب الثروات، الخ. إنها تطوح بالمشاهد بعيدا وكأنه يتحول إلى كوكب آخر لا علاقة له بجياع الأمة وفقرائها ومرضاها وأنات جرحاها ودموع أراملها وأيتامها. رفح تدمر والعراق يحترق، بينما ينشغل عشرات ملايين المشاهدين بجمال صوفيا وخفة روح محمد عطية.

لا أقول أن على كل بيت عربي أن يفتح مأتما بسبب ما يجري في العراق وفلسطين، لكن من المفروض أن يكون هناك توازن بحيث لا يضيع الشاب في متاهات التخدر الجسدي والتيه الروحي ويفقد اتصاله بدماء الأمة وشهدائها وبيوتها المدمرة ومزارعها المحروقة وطموحاتها وآمالها.

رابعا: شعرت وأنا أشاهد إحدى حلقات **الهوى سوى** وكأنني أجلس في حارة في القاهرة مع مجموعة من الطاعنات في السن لا يشغلهن سوى من مر وماذا كان يحمل بيده وهل ضرب ابنته الطائشة أم لا. حكاية يومية اعتيادية تافهة التفاصيل لا تهمني إطلاقا ولا إبداع فيها ولا جديد. أحاديث لا تختلف بتاتا عن أي أحاديث عادية تحصل مع مئات الملايين من الناس يوميا. إنها مضيعة للوقت ومتعبة للعينين.

خامسا: النقطة الأهم تتمثل في أن برامج التلفاز الواقعي تصب ضمن منطق العولمة الذي يحاول صنع ثقافة عالمية بقيادة الثقافة الأمريكية. تحاول أمريكا عبر سياسات متعددة أن تنشر ثقافتها وفكرها لتصبح الثقافة العالمية لمختلف الشعوب والأمم. تقوم هذه الفكرة على مبدأ أن إعادة تثقيف الأمم يشكل الضمان الأفضل لبقاء الولايات المتحدة في الصدارة وفي موقع القيادة في مختلف ميادين الحياة. من خلال التثقيف، ينغرس في البناء النفسي الداخلي للناس بأن القيم الجديدة التي يتعلمونها والأفكار التي تحكم صياغة علاقاتهم هي التي يجب أن تحل محل القيم والأفكار الأصيلة التي باتت غير صالحة، وبذلك يصبح تقبل الهيمنة الأمريكية على أنه مسألة قيمية لا علاقة لها بالهيمنة أو الاستغلال أو الاستعمار.

سادسا: النقطة أعلاه تتصل مباشرة بفكرة تغييب الأصالة العربية في الموسيقى والرقص والغناء بحيث ينفصل المرء عن تراثه الفني لصالح تراث وافد. تابعت العديد من الأغاني والفقرات الموسيقية المطروحة، لم أجد من بينها المواويل الشعبية أو تلك المطورة على نمطها، ولم أجد

الناي والمزمار والربابة. تغيب الدبكة الشامية عن المسرح ورقصة العصا المصرية والترنيمة المغربية. ما سمعته هو أغاني غربية بكلمات عربية، وآلات عزف غربية مليئة بصخب يكاد يثير الأعصاب. وما رأيته من أداء جسماني يتلخص في أجساد نساء تتلوى بحركات مبتذلة أعدت مسبقا بهدف إغرائي وليس لأهداف جمالية.

بهذا يمكن القول أن برامج التلفاز الواقعي تعتدي على التراث الثقافي الفني للأمة. وبما أن هذا التراث عبارة عن جزء من هوية الأمة فإن الاعتداء على الهوية واضح سواء كان مقصودا أو غير مقصود. الفن جزء من المعرفة والثقافة الوطنية التي تعبر عن خصوصية الأمة وتميزها عن الأمم الأخرى، وهو مصدر فخر واعتزاز وتشكل ممارسته عملا انتمائيا. هناك اعتداء صارخ على التاريخ والثقافة من شأنه أن يصنع جيلا لم يتعرض للتعرف على زوايا حيوية من الشخصية العربية.

هذا بالتحديد ما تهدف إليه العولمة وهو تذويب الهويات والقضاء على التميز لصالح هوية معينة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. تأخذ مسألة نشر الفكر والثقافة الأمريكية أولوية في البرامج الأمريكية ولتحل محل الثقافات المحلية بخاصة ثقافة النخب المثقفة التي تؤثر في البناء المجتمعي. ليتعرف الشاب، حسب الرؤية الأمريكية، على الهامبورغر وليبق جاهلا بالمنسف، وعلى فطيرة التفاح دون طبق الكنافة. وليستمع إلى الآلات الصاخبة على حساب الناي الهادئ، وإلى الأغاني الصراخية دون المعبرة عن البلاغة والحكمة، وإلى الابتذال دون الالتزام.

صحيح أن برامج التلفاز الواقعي تمت صناعتها في أوروبا أولا، إلا أن الشركات الأمريكية تلقفتها وأخذت تطورها من أجل الاستفادة في برنامج العولمة الأمريكية. رأت هذه الشركات في البرامج فرصة بث قيم جديدة يمكن تعميمها عالميا. بدأت البرامج في أوروبا وامتدت إلى أمريكا ثم إلى المنطقة العربية. إنها ذات البرامج ويتم تنفيذها بذات الشروط وذات التفاصيل على الرغم من اختلاف اللغة. حتى أن اللغة العربية تنحسر أحيانا في البرامج المعربة لصالح الإنكليزية والفرنسية.

لسان حال العولمة هذه يقول للناس: استمتعوا بوقتكم وهناك من يفكر بالنيابة عنكم. إنه لسان يعمل على إلهاء الناس بمسائل ثانوية جدا ويبعدهم عن التفكير الحر ومحاولة الإبداع المنطقي والعلمي. هذه العولمة عبارة عن حملة كبيرة من أجل تتفيه الناس في كل العالم لكي تستقر الأمور لأصحاب المصالح الضخمة وعلى رأسهم الشركات الأمريكية العابرة للقارات فيتمكنون من صنع السياسات

التي يريدون دون أن يلاقوا تحديات جماهيرية. فكلما تقلص تفكير الناس أو انصرف إلى صغائر الأمور، تمكن أصحاب المصالح من تحقيق مآربهم بيسر وسهولة.

ينسحب هذا على قضايا الوطن العربي وعلى رأسها القضية الفلسطينية. تنحسر مسائل التحرير والعزة والكرامة والوحدة أمام قضاء وقت في الغناء الذي لا يحمل معان جمالية وفي الرقص الذي لا يفرز سوى العرق النتن. وهنا يتقلص التاريخ إلى اللحظة وتصبح القضية قضية ترفيه شخصي وليس حقوق شعب. لماذا نقرأ التاريخ ونصر على الحقوق إذا كانت لقمة الخبز موجودة وإذا كان التلذذ الجسدي يقينا شرور التضحيات؟ يتحول هكذا المرء إلى مجرد حيوان مستهلك لا تقلق منامه قضايا ذات قيمة ويستسلم للأمر الواقع الذي دخلت قيمه إلى أعماق الذات.

المستفيد الأكبر من مثل هذا الوضع هو إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. أمريكا تريد ثروات الأمة، وإسرائيل تريد الهيمنة والبقاء كسيدة المنطقة. الإنسان التافه فقط هو الذي يوفر لهما هذه الفائدة، على عكس الإنسان الحر الذي يعي نفسه وتاريخه وحقوق شعبه وأمته. وبما أن الأنظمة العربية في أغلبها تدين لأمريكا وإسرائيل فإنها بالتأكيد ستسهل انتشار هذه البرامج وما يرافقها من قيم.

كان القمع بالأمس هو وسيلة الأنظمة العربية وإسرائيل من أجل السيطرة على العرب والفلسطينيين، لكنه أسلوب أخذ يعطي مؤخرا نتائج سلبية. يأتي التتفيه من خلال التركيز على الشهوة والمتعة الجسدية كبديل يمكن أن يؤثر سلبا على روح المقاومة العربية والفلسطينية، وعلى قوة دفع الأمة نحو التقدم. سيقيمون للأمة بعض الديمقراطية لإزالة جزء من القمع، لكنها ستبقى ديمقراطية التحلل من القدرات العقلية والفكرية والإقبال على قيم جديدة تتغذى على القيم العربية والإسلامية وعلى التطلعات والطموحات.

الحسنات

أستطيع أن أفكر بحسنة واحدة للتلفزيون الواقعي وهي استقطاب المشاهدين العرب من كل مكان وحشدهم للتفاعل معا حول مواضيع معينة. لقد استقطبت برامج المحطات اللبنانية الشباب العربي ووجهت أنظارهم نحو قضايا مشتركة، ودفعتهم للمشاركة معا في تحديد الفائزين والأفضل. لقد حالت أجهزة المخابرات العربية دون التواصل الشعبي العربي وعملت على قمع التجمعات على مستوى الوطن العربي ومنعت الأحزاب ذات الامتدادات العربية. أما هذه البرامج فقد تخطت الحواجز وجمعت الملايين حولها. بالطبع تنظر المخابرات إلى هذه البرامج على أنها لا تشكل

خطورة على الأنظمة ولا تتحداها، وتنظر إليها الولايات المتحدة على أنها في خدمة فكرة العولمة، لكن هذا التفاعل لا بد أن يعطي أكله الحسنة على المستوى العربي مستقبلا. صحيح أن الشباب يتجمعون على ما يشبه الجيفة، لكن ذلك يعزز لديهم الوعي بأنهم أبناء أمة واحدة. هذا الوعي مطلوب تعزيزه بعد أن أثخنت الأنظمة العربية الجراح في جسد الأمة وعملت على طمس فكرة الوحدة العربية.

ليس من التفاهة أن تجمع الشباب من المغرب والشام ووادي النيل والجزية العربية، وليس من التفاهة أن يجلس ملايين العرب أمام الشاشة يشاهدون عربا وليس مجرد مصريين أو سوريين أو تونسيين. صحيح أن البرامج ليست جادة لكنها أفلحت فيما عملت الأنظمة على تجاوزه ومنعه. وربما ترى الأنظمة الآن أن مثل هذه البرامج تخدم أهدافها في تحويل نظر الشباب عن القضايا الأساسية، لكنني أتوقع أن تدفع الثمن مستقبلا وذلك لأن الصغير يكبر والشاب يشيب. شباب اليوم هم كبار المستقبل، وستتلاشى الترهات الغنائية الرقصية الحالية من حياتهم إلا من الذاكرة لتبقى في رؤوسهم الفكرة الأوسع التي تعاملت مع الشباب جميعا على أنهم عرب ينتمون إلى أمة واحدة.

التوصيات

قدرة برامج التلفاز الواقعي على الاستقطاب والنجاح لا تأتي من فراغ. يعيش العربي في حالة من الفراغ والكذب، وهو يبحث عما يملأ وقته ويقول الصدق. برامج التلفاز الواقعي، على علاتها، تملأ فراغا عجز المتخصصون في مختلف المجالات عن تعبئته، وتقول الصدق مقارنة بالمسؤولين العرب. وعليه فإن من يبحث عن وضع حد لهذه البرامج لأنها حسب اعتقاده تخرب الشباب، فإن عليه أن يضع البدائل لكي يشعر هؤلاء الشباب أنهم منتجون ومشاركون ومحترمون. في ظل الأنظمة القائمة، وفي ظل السلطة الفلسطينية، أنا لا أتوقع وضع برامج مفيدة تساعد الشباب على تعزيز الانتماء والدفاع عن حقوق الأمة ومصالحها.

الأمر بين أيدي الأحزاب والتنظيمات خارج الحكم إذ عليها تطوير أساليب ووسائل عملها بطريقة تؤدي إلى رفع الحشد الجماهيري. إن لم تفعل ذلك، فإن البكاء سيبقى مجرد دموع.

من المهم ألا يشار إلى الشباب على أنهم يتحملون مسؤولية هذا الانقياد أو التمتع بالبرامج المطروحة على التلفاز الواقعي لأن المربي هو الذي يتحمل مسؤولية تنمية الشخصية وتوجيه السلوك. (لو) لم تكن هناك أرضية تربوية إما منفرة أو مشجعة أو مستهترة لما حصل مثل هذا النجاح الذي تلاقيه برامج التلفاز الواقعي. من هو هذا المربي؟ إنه الحاكم والأب والمدرسة

والشارع، الخ. والأكثر أهمية من هؤلاء هو التيار العالمي الجارف الذي عجزت مجتمعاتنا حتى الآن عن الوقوف في وجهه أو تلطيف آثاره أو تقديم بديله.

للشاب أو الشابة طاقات تبحث عن التفريغ أو التعبير عن الذات، فإن لم نوفر نحن الأجواء لأبنائنا فإنه من الوارد جدا أن يبحثوا عنها لدى غيرنا. غيرنا يمتلك الرؤية الواضحة ويضع البرامج وينفذ، ونحن نقف حيارى نندب حظنا.

نقطة أخرى مهمة، هناك من يستعمل الإسلام لتحديد سلوك معين شبابي معين يتسم بالتشدد والضيق. (لو) جاء الإسلام ليفعل ذلك لما انتشر. الإسلام دين انطلاق وليس إباحية، ودين يشجع التمتع بنعم الله ويمنع الإسراف، ويحض على العمل كما يحض على الترويح عن النفس. التشدد والغلظة يدفعان بنسبة عالية من شبابنا وشاباتنا إلى الانبهار بما لدى الغير من برامج. هناك نوع من الإرهاب الفكري يمارس باسم الدين يمنع تداول الأفكار بطريقة حرة تؤدي إلى استحسان برامج تلبي احتياجات الشباب من الجنسين. وهنا تجتمع قوى الأجهزة الأمنية مع إرهاب العيب المجتمعي واتساع الحرام الديني لينفتح المجال أمام الغير للتأثير بقوة في المجتمع العربي.